وشاء الشاعر أن يجيب الليل والنجوم والنسيم المقرور ، ففى ظلمات الليل والبرد والهواء الخفيف والزهر المغطى يسترد الشاعر قدرته ، ويحن إلى التأمل والنفاذ ، ويجد المادة الأولية التى تبعث على التعاطف والإبداع .

ويتصور الشاعر بعد قليل أن الإبداع يصحبه الشعور باللجة التى تغمر الشاعر ، ويزوغ عالم مضىء ، ورعشة خفيفة باردة ، كل أولئك معالم إبداع يحرص الشاعر على أن يجربها ويحييها ويلتمسها .

ونحن نزعم أيضا أننا نتبين بعد قليل أن الشاعر يجد كل هذا فى نفسه . ويعتقد أن العقل يخلق لنفسه طبيعة ملائمة يتحرك فى داخلها . ويتحدى بواسطتها ما لايريد .

ومضى يركض مقرور النسيم
وثنى الزهر على النور الغطاء

هنا عاطفة أمومة بعيدة . وربما مضى النسيم المقرور كما يمضى الطفل الغائب الى الدار . ولاشىء يبقى فى الخارج إلا النجوم ، فهى حارسة الليل .

هنا يجد المازنى إشباع حواسه ، وينادى على الدواة ، لأنه يريد نوعا من السمر تحت الدجى والنجوم ، وقد غفا مع الليل رجع التجارب الكثيرة وموقعها من النفس ، لكن الإغفاءة أو النوم القصير المنقطع يساعد على أروع حالات التأمل . وليس ثم ما هو أحب إلى المازنى من مداعبة الظلام والإغفاء .

المازنى يبحث عن صدى الليل والسمر فى الدجى ، ويريد أن يعقد الصلة بينه وبين الظلام ، وأن يجرب التفكير فى كنفه ، ولاندرى فى ختام المطاف من الطارق على الباب عابثا ومحييا أهو الدجى أم هو روح الطفل كما زعمنا .

يبحث المازنى عن نفسه . وكان هذا البحث مشغلته . كان يحب همومه الداخلية . يحبها ميتة حية وساكنة صائحة . هذه الهموم تعود فتناجيه عم مساء . لكن التحية كما زعمت أضفت على الهموم معابثة الصغار الأشقياء .

وأفصح المازنى عن هذه المعابثة فى قوله :